عندما نبحث عن نظام جديد للديمقراطية

بقلم: إحسان عبد القدوس

الشعارات العامة التي تعتمد على الألفاظ الكبيرة لا يمكن أن تكون مجال مناقشة تستنزف جهد الفكر السياسي... الحرية... الديمقراطية... العدالة الاجتماعية... حق الشعب... و... و... أنها أشبه بترديد كلمات: الصدق... الإيمان .. الوفاء و.... و.. كلها عناوين عامة ترن عالميا أشبه بضربات الطبول، ولكن الذي يجهد الفكر ويقوم عليه البناء السياسي هو تحديد وتنظيم ممارسة العدالة الاجتماعية، وممارسة حق الشعب، وهذا التحديد لنظم الممارسة هو الذي يدور حوله الخلاف في الرأي وفي الاتجاه والنيات السياسية... كما أن نظم الممارسة قد تقوم لتحقيق سيطرة طبقة على طبقة مستغلة أو مختفية تحت شعار الديمقراطية، وقد سبق أن جربنا بعد الثورة ولسنوات طويلة حكما فرديا كان يقوم بيننا باسم الديمقراطية أيضا... وفي ليبيا الآن دعوة تقوم على أن الشعب أكثر من أن يقوم أحد بتمثيله، أي أن ينتخب نوابا له في البرلمان أو في أي تجمع سياسي، وأن الديمقراطية الصحيحة هي أن يحكم الشعب حكما مباشرة، وبمعنى آخر أن تكون العلاقة بينه وبين مجلس قيادة الثورة أو على الأصح بينه وبين قائد الثورة علاقة مباشرة بلا حاجة إلى برلمان أو نواب وهي صورة من صور ممارسة الحكم تؤكد الحكم الفردي المطلق، أي الديكتاتورية، ورغم ذلك فهي توضح تحت شعار الديمقراطية وتدعي تحقيق السلطة الشعبية...

ومنذ أن انطلقنا في مناقشة نظام الحكم في مصر وكل الـذين يشـتركون فـي النقاش يرددون شعار الديمقراطية... الذين ينادون بتعدد الأحزاب، والـذين يرفضـون الأحزاب والمنابر، والذين يريدون العودة إلى ما قبل الثورة، والذين يريـدون تطـوير الثورة إلى صورة تضمن المستقبل، كل هؤلاء يرددون شعار الحرية والديمقراطية دون أن تظهر حتى اليوم صورة جديدة محددة مفصلة لنظم ممارسة الحرية أو الديمقراطية، أي ممارسة حكم مصر... وهو ما يترك كل المناقشات تدور وكأنها مناقشات في مقـاه أو صالونات حتى بعد أن تكونت اللجان الرسمية لحصر هذه المناقشات... أي أن هـذه

المناقشات تدور دون أن يقف وراء أي اتجاه فيها تجمع شعبي له قيمته وقوته... تجمع يتحرك ولا يكتفي بالاستماع والفرجة.. وكانت النتيجة أن أصبح الناس يعيشـون فـي حيرة التساؤل....إلى أين؟ وكيف؟ ..ولم يكن هناك مخرج من هذه الحيرة إلا انتظـار كلمة القائد الأعلى... أي أننا مازلنا- بعد كل هذه الحرية – نقول رأينا ولكننا نعجز عن اتخاذ القرار.

وأنا واحد من المواطنين الذين يجهدون فكرهم في محاولة تصور تنظيم جديـد لممارسة الديمقراطية، ومن بين ما تأثرت به، وقد لا يكون أحد آخر قد تأثر بـه، هـو تتبع مصير التنظيم الديمقراطي في الهند، فالجيل الذي أنتمي إليه منذ أن كان لا يـزال في روضة أطفال السياسة وهو متأثر بتتبع الحياة السياسية في الهنـد ربمـا لأن كلتـا الدولتين كانتا تحت سيطرة الاحتلال البريطاني، وكانت النظم السياسية المتبعة في كـل منهما هي نظم مفروضة عليه نقلا عن النظام البريطـاني .. أي النظـام الـديمقراطي التقليدي .... وهذا هو ما يحدث دائماً، أي أن يفرض الاستعمار نظامه السياسي الخاص على الدولة التي يستعمرها وبصرف النظر عن اختلاف الوضع الاجتمـاعي والكيـان الشعبي... فالدولة التي تستعمرها فرنسا تمارس الديمقراطية الفرنسية، والتي تستعمرها إيطاليا تمارس الديمقراطية الإيطالية، وهكذا، وهو ما استمر حتى بعد تطـور الوضـع العالمي وظهور القوتين العظميين فأصبح الذين ينتمون إلى الاتحاد السوفيتي يمارسـون الديمقراطية السوفيتية- وهي أيضا تسمى ديمقراطية- والذين ينتمـون إلـى الولايـات المتحدة يمارسون الديمقراطية الأمريكية...

واختلف الهند عن مصر بأنها استطاعت بممارسة هذه الديمقراطيـة أن تحقـق استقلالها واستمرت بعد الاستقلال تمارس نفس التنظيم الديمقراطي، القائم علـى تعـدد الأحزاب، رغم أن الحزب الحاكم لم يتغير حتى اليوم، واسـتطاعت أن تحقـق تقـدما كبيرا، وكان نهرو يقول "أن الديمقراطية مضيعة للوقت ولكنها تحمينـا مـن أخطـاء كثيرة"... وهذا، بينما نفس النظام الديمقراطي القائم على تعدد الأحزاب يسقط وينـزوي في كل دول آسيا وإفريقيا، ربما لأن بريطانيا بدأت تسقط كدولة استعمارية وبدأ نظامها

السياسي يسقط كدولة استعمارية وبدأ نظامها السياسي يسقط معها، كما حـدث بالنسـبة للديمقراطية الفرنسية...

أصبحت الهند هي الدولة الوحيدة بين دول العالم الثالث التي تمارس الديمقراطية التقليدية.....

وفجأة.....

بدأت الديمقراطية الحزبية تهتز في آخر معاقلها..

بدأت تسقط في الهند أيضا...

وكنت أتتبع ما ينشر في الصحف عن أزمة الديمقراطية في الهند وأنا لا أريد أن أقتنع، وكانت الصورة التي ترتسم في خيالي كأنها ثورة جديدة في الهند تقودها انـديرا غاندي وحزب المؤتمر .. ثورة على الديمقراطية ... ولم أحتمل هذا الخيال، وقـررت فجأة أن أسافر إلى الهند لعلي أستريح هناك من خيالي... وبعد ساعات من وصـولي، وأذناي تمتلئان بتفاصيل الأحداث، أحسست وأنا في نيودلهي كأني فـي القـاهرة عـام 1954، وهو العام الذي بدأ يتقرر فيه مصير الديمقراطية هنا في مصر .. نفس النتائج مع اختلاف الوسائل والمظاهر.. الأحكام العرفية أو حالة الطوارئ...

الاعتقالات تشمل الآلاف بينهم قادة وزعماء وأعضاء في البرلمان... الخـوف من التجسس والمخابرات إلى حد أن صديقا جاء يزورني في غرفتـي بالفنـدق ففـتح الراديو وأطلقه عاليا حتى يحمي نفسه إذا كان هناك جهاز يسجل ما يقول لي، تماما كما كان يحدث عندنا... والرقابة على الصحف، ولكن الرقابة لا تكفي، أن الصحف هنـاك وهي أكثر من ثمانمائة صحيفة يومية يمتلك أقواها رجال أعمال وأصحاب شـركات ضخمة لا تضمن الدولة مواقفهم، ولم يتجه التفكير إلى تأميم الصحافة كما حدث عنـدنا ولكن الفكر يتجه إلى احتفاظ أصحاب الصحف بملكيتها مع إقامة مجلس في كل جريدة يصبح من حقه وحده السيطرة السياسية عليها، ولا يصبح من حق صحاب الجريـدة إلا أن يأخذ نصيبه من الأرباح، وهو ما يسمى هناك "فك الارتباط" بين الصحف وأصحابها .. و...

و... وما عرفته وسمعته كثير، وأعجب ما فيه بالنسبة لي أن كلمات مما يرددها هناك المسئولون كان يرددها بذاتها جمال عبد الناصر والمسئولون في مصر أيام التخلص من نظام الديمقراطية الحزبية التقليدية...

والمفروض أن الانتخابات الهندية اللي أجلت ستتم بعد عام واحد ويعود وبعدها كل شيء كما كان، ولكني كنت أقول لكل من أقابله: أنكم لن تعودوا أبدا إلى نفس النظام الديمقراطي ... يجيب أن تبحثوا عن نظام جديد ديمقراطي أيضا... وقد وعد جمال عبد الناصر عام 54 بإجراء الانتخابات وعودة الحياة النيابية كما كانت بعد ثلاث سنوات ولم تعد أبدا كما كانت إلى أن مات... وكان كثيرون مما أقابلهم في الهند يوافقونني على رأيي ومنهم أعضاء في حزب المؤتمر ونواب في البرلمان، إلا السيدة انديرا غاندي فهي الوحيدة التي رفضت رأيي وأصرت على أن الممارسة الديمقراطية ستعود كما كانت تماما بعد أن تعدل المعارضة عن أسلوبها واعتداءاتها ومحاولة إسقاط الحكومة احتراما للدستور إلى أن تسقط – إذا سقطت – بفشلها في الانتخابات... وهو كلام معناه أنه إذا لم تعدل المعارضة عن أسلوبها فلن تعود الحياة الديمقراطية....

وقد طال حديثي مع السيدة انديرا ربما لأني كنت أصر على عدم الاكتفاء بترديد الشعارات العامة، وانتهى اللقاء قبل أن ينتهي الحديث، ولم يكن حديثا صحفيا يعد للنشر، ومنذ أكثر من عشرين عاما وأنا لا أنشر أحاديث صحفية مع أحد، ربما لأني أحس بأني لو أمسكت بقلمي لأسجل ما أسمعه أو لو وضعت أمام المتحدث جهاز تسجيل فسأنقله من الإحساس بأنه يتحدث حديثا خاصا إلى الإحساس بأنه يتحدث حديثا عاما فلا يقول كل شيء ولا ينفعل بالمناقشة، ولهذا كنت أنا الذي اعتذرت عن وضع جهاز تسجيل بين وبين السيدة انديرا وربما لهذا طالت المناقشة بيني وبينها، أي لأنها مناقشة ليست أمام ميكروفون. ..

وقد اقتنعت بكل الأسباب التي أدت إلى إعلان حالة الطوارئ في الهند.. ولكن ما الذي أدى إلى هذه الأسباب؟

ربما كان أبرز مظاهر التطور في سياسة الهند هو موقفها بين القوتين العظميين، فقد أصبحت أقرب إلى الاتحاد السوفيتي وأبعد عن الولايات المتحدة، حتى أصبحت تتهم صراحة بأنها مستلمة للسوفيت، وفي الوقت نفسه أصبحت في حالة عداء صريح مع الصين.... فهل يكون هذا الموقف الخارجي قد انعكس على الحالة الداخلية وأدى إلى توقف الديمقراطية .. وأن السيدة انديرا غاندي تهاجم أمريكا والصين صراحة وتتهمهما بالتدخل، ولكن الجانب الآخر يهاجم الاتحاد السوفيتي صراحة أيضا ويتهمه بمحاولة فرض أسلوبه في الحكم.

www.anwarsadat.org